معاتبة النبي في القرآن والأدب
نثراً وشعراً

د.علي كمال الدين الفهادي
مدرس /كلية الآداب /قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

لفتت نظري قصيدة في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري يعاتب فيها الرسول — صلى الله عليه وسلّم — ، فتابعت عندها متسائلاً : أتجوز معاتبة الرسول وهو لاينطق عن الهوى ؟ وهل يقبل العتاب من أصحابه ؟ ثم أجالت النظر والخاطر في شعر صدر الإسلام ونثره ، فتذكرت عتاب الأنصار بشأن غنائم حُنَيْن والاستجابة الكريمة من الرسول لذلك العتاب فتاقت نفسي لدراسة هذا اللون الأدبيّ على ندرة نصوصه . وذهبت أبحث في كتاب الله — عز وجل — فصدرت عن آيات يعاتب الله فيها نبيّه الكريم فتررت بعد التوكل على الله دراسة الموضوع ورحت أفتش عن مفهوم «العتب» في اللغة والاصطلاح مجيلاً النظر في بطون المعاجم وتفاسير القرآن الكريم ، حتى إذا تهيأ لي جمع مادة البحث درستُ الآيات القرآنية وتدرّج العتاب فيها بين الرقّة والشدّة ، ثم خلصت من ذلك إلى دراسة العتاب النثري ومدى تأثره بأسلوب العتاب القرآني ، ثم عرّجت بعدها على دراسة العتاب الشعريّ لأكشف مبلغ تأثره بأسلوب القرآن الكريم واستجابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهذا العتاب ، ثم خلصت من ذلك كله إلى خاتمة أدرجت فيها بإيجاز نتائج العمل ، وثبّت بما اعتمدته من مصادر ومراجع . أسأل الله العون والسداد وله الحمد في الأولى والآخرة .

العتاب لغة : يخرج القارىء بعد بحثه في معجمات اللغة بمفهوم للعتب يجعله أدنى درجات اللوم وأخف مراجعة المتواجدين . فالمعاتبة دون اللوم عند

الهمذاني ، فهو يوردها في باب اللوم بقوله «يقال : لمت الرجل لوماً وعذلته عذلاً ، وأنبته تأنيباً ، وقرعته تقريعاً ، وفندته تفنيداً ، ووبخته توبيخاً ، وبكّته تبكيتاً ، ولحيته لحياً ، وعنفته تعنيفاً . فهي المعاتبة ثم اللوم ثم التقريع ثم التوبيخ ثم التأنيب» (١) . فالمعاتبة اخف ما يكون عليه اللوم . و «العتب» عند ابن فارس «الموجدة» يقول : «العتب الموجدة ، تقول : عتبت على فلان عتباً ومعتبة ، اي وجدت عليه ثم يشتق منها فيقال : اعتبني اي ترك ما كنت اجد عليه ورجع إلى مسرتي» (٢) . ويورد الجوهري قول الخليل : «العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة ... يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . وأعتبني فلان ، إذا عاد إلى مسرتي راجعاً عن الإساءة . والاسم منه العُتْبى ... تقول : استعتبته ، فاعتبني ، اي استرضيته فأرضاني» (٣) . والمعاتبة عند الفيروز — آبادي تواصف الموجدة يقول العَتْبُ الموجدة ... والمعْتَبَةُ والملامة كالعتاب والمُعاتَبَةُ ... والمعاتَبَةُ : تواصف الموجدة ومخاطبةُ الإدلال» (٤) وينقل ابن منظور قول الأزهري «التعَتُّبُ والمعاتبة والعتاب : كل ذلك مخاطبة الإدلال وكلام المُدِلين أخلاءَهُم . طالبين حسن مراجعتهم ، ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم الموجدة» (٥) . «وعاتَبَهُ معاتبة وعتاباً : كل ذلك لامَهُ . قال الشاعر :

أعاتبُ ذا المودّة من صديق ... إذا ما رابني منه اجْتِنابُ

إذا ذهب العتابُ . فليس ودٌّ ... ويبقى الود ما بقي العتاب» (٦)

فحصيلة المفهوم اللغوي للمعاتبة ينبني على علاقة تقوم بين اثنين لهُما المودة والصداقة والحب وتقرها موجدة تزيلها المفاوضة والمراجعة

(١) الألفاظ الكتابية ١ .
(٢) معجم مقاييس اللغة ، مادة «عتب» ٤/٢٢٦ .
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، مادة «عتب» ١/١٧٦ .
(٤) القاموس المحيط ، مادة «عتب» ١/١٠٠ .
(٥) لسان العرب ، مادة «عتب» .
(٦) لسان العرب ، مادة (عتب) ولم اعثر على قائل الشعر

تجد في كتب تفسير القرآن الكريم اشتقاق فعل مبني للمجهول ورد على صيغة الاستفعال من مادة «العتب» في تفسير قوله تعالى : «ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون» (١) . وقد قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : «الاستعتاب طلب العتاب ، والرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان على جزم أنه إذا عاتبه رجع إلى الرضا ، فاذا لم يطلب العتاب منه دل على أنه راسخ في غضبه وسطوته» (٢) . فالرازي يجلو لنا حقيقة مهمة ينبني عليها العتاب والمعاتبة ، ألا وهي الرضا المرجو من العتاب والمودة الملتمسة من المعاتبة ليحيل الكدر صفواً . ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالى «ولا هم يستعتبون» «يعني يُسْتَرْضَوْن ، أي لايكلفون أن يُرضوا ربهم ، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العَتْب وهي الوجدَة ، يقال : عَتَبَ عليه يُعتِبُ إذا وَجدَ عليه ، فإذا فاوضه ماعتب عليه فيه قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعْتَبْ ، والاسم العُتبَى وهو رجوع المعتوب عليه إلى مايرضي العاتب ، قاله الهروي (٣) وقال النابغة الذبياني (٤) .

فإنْ أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمتَهُ وإنْ تَكُ ذا عتبى فمثلك يعتبُ

العتاب إصطلاحاً :

أسفر البحث في معاجم اللغة وكتب التفسير عن حقيقة المعاتبة التي تقوم على أساس من الحرص على استمرار المحبة أو الصداقة أو الرضا بعد حصول مايكدرها وينغصها ، فاذا حصلت المعاتبة زال الكدر وصفت النفس وسكنت إلى الحب والصداقة والمودة . ولم يقبل «الاستعتاب» في القرآن الكريم من الكافرين ، لأن فرصتهم في التوبة قد أفلت في الحياة الآخرة ، وقد زال ميدان العمل بزوال الدنيا وفنائها وجاء اليوم الحق فتجزى كل نفس بما قدمت وكسبت في حياتها الأولى وليس ثمة رجعة اليها من الآخرة ، وليس ثمة عتب واستعتاب للكافرين ذلك أنهم منحوا كل فرص التوبة في حياتهم الدنيا فاستنفدوها ضالين .

---

(١) سورة النحل الآية ٨٤ .
(٢) التفسير الكبير ٩٦/٢٠ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الخامس ، ١٦٢/١٠ .
(٤) ديوان النابغة الذبياني ٧٤ .

العتاب في القرآن الكريم :

عاتب الله جل شأنه نبيه الكريم وحبيبه المصطفى غير مرة في القرآن الكريم فهو سبحانه خالق النبي وبارىء نسمته على خلق كريم وقد عاتبه لأمته وعاتبه لنفسه وأهله وعاتبه لصحبه وعاتبه لدعوته وفي كل عتاب درس للأمة والإنسانية فرداً ومجتمعاً ،قبائل وشعوباً تسير البشرية على هديه وتنهج نهجه ، وقد تدرج العتاب من اللطف واللين الذي يسبقه العفو إلى العتاب الليّن الذي يتلوه العفو ، فالعتاب الرادع ثم الشديد . وكان التدرج على هذا النحو في الآيات الكريمة الآتية :

١ ـ قال الله تعالى «عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين» (١).

عندما اراد الرسول صلوات الله عليه ـ الخروج للجهاد في غزوة «تبوك» استأذنه المنافقون وتعللوا بالعلل ليتقعدوا عن الجهاد ، فأذن لهم ، «أخرج ابن جرير عن عمرو عن ميمون الأزدي ، قال : اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى . فأنزل الله (عفا الله عنك لم أذنت لهم ... الآية» (٢) .

وهذه الآية يعجل فيها الله العفو لحبيبه ويقدم له الصفح قبل أن يعاتبه باستفهام رقيق هادىء رفيق «عفا الله عنك لم أذنت لهم ..» ويقدم له ولأمته الدرس البليغ والنهج الذي يصاغ بموجبه المجتمع المتماسك المتحد ؛ مجتمع كل فرد فيه واضح الموقف والقصد والهدف ، مجتمع يكشف ادعاء المدعين ومراء المرائين الذين يعلنون اعتناق المبادىء والعقيدة ولا يقاتلون في سبيلها (٣) . فهذا العتاب من اجل الأمة لتكشف في حاضرها ومستقبلها كل الفئات المزيفة التي تتشدق بالمبادىء ولا تحارب دفاعاً عنها .

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٣ .
(٢) لباب النقول في اسباب النزول ، السيوطي ١٤٠ .
(٣) ينظر الكشاف ، الزمخشري ١٩٢/٢ وفي ظلال القرآن ، سيد قطب ٢٣/٤ .

٢ ـ وقال سبحانه : «يا أيها النبي لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك تبتغي مرضات ازواجك والله غفور رحيم (١) .

يبين السيوطي سببين لنزول هذه الآية : الأول : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة (ماريه القبطية) يطؤها فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً (٢) والثاني أن الرسول عليه الصلاة والسلام «كان يشرب عند سودة (٣) العسل . فدخل على عائشة . فقالت : إني أجد منك ريحاً . ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك . فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه فنزلت «يا أيها النبي .. »(٤) . وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) : يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً» (٥)

فهنا يعاتب الله جل شأنه نبيه وصفيه لنفسه ولأهله ، ليجعل من هذا العتاب سنة للمؤمنين تحجزهم عن حرمان النفس مما أحل الله لها ابتغاء مرضاة الزوج والأهل ذلك أن حرمان المرء نفسه من متع الدنيا التي احلها الله له قد تدفع به إلى بغض من كان السبب في دفعه الى العزوف عنها ، وعندها قد تحدث ثلمة للشروط التي اشترطها الله سبحانه للزواج السليم بقوله تعالى :

«ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (٦) .

إن الأسرة السعيدة القوية المتماسكة أس المجتمع الإسلامي ، يقوم عليها بناؤه وتقام عليها دعائمه ويشاد بها صرحه ، وقد كان العتاب الإلهي رقيقاً هادئاً يصور لنا الجو الذي يريده الإسلام للأسرة ، جواً رقيقاً مبنياً على حوار

(١) سورة التحريم ، الآية ١ .
(٢) لباب النقول ٣٠٤ .
(٣) سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس... هاجرت الى الحبشة مع زوجها وعادت الى مكة ، ثم مات قبل الهجرة فتزوجها الرسول (ص) ينظر السيرة ١/٣٢٩ و٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٤) لباب النقول ٣٠٥ وينظر الكشاف ، الزمخشري ٤/١٢٤ ـ ١٢٧ .
(٥) نفسه ٣٠٥ .
(٦) سورة الروم ، الآية ٢١ .

لبّه الهدوء والتفاهم والتفاوض ، وقد بني هذا العتاب على الاستفهام المؤثر الرقيق «ياأيّها النبيّ لم تحرّم ماأحلّ الله لك» وهو استفهام يشبه استفهام العتاب السابق في سورة التوبة «عفا الله عنك لم أذنت لهم..» غير أنه سُبق بالعفو وجاء الاستفهام هنا «لم تحرّمُ.. سابقاً للعتاب مشفوعاً بالعفو «والله غفور رحيم..» . ولايخرج الأمر إلى التحريم الشرعي فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حرّم العسل أو ماريّة (١) بمعنى التحريم الشرعي ، إنما كان قد قرر حرمان نفسه ، فجاء هذا العتاب يوحي بأنّ ماجعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً إرضاءً لأحد والتعقيب بعبارة «والله غفور رحيم يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤآخذة وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته وهو إيحاء لطيف(٢) . فهذا العتاب للنفس والأسرة ، وهو درس يصوغ الحريّة في دائرة ماأباح الله للمرء في بيته وأسرته .

٣ – وقال سبحانه وعبس وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعلّه يزّكّى ، أو يذكرُ فتنفعُهُ الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى وما عليك الا يزّكّى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى فأنت عنه تلهّى ، كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره في صحف مكرمّة ، مرفوعة مطهّرة ، بأيدي سفرة كرام برَرَة ، قتلَ الإنسان ماأكفره»(٣) وقد نزلت هذه السورة كما أورد ابن هشام لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتحدث مع الوليد بن المغيرة ، ويكلمّه طمعاً في إسلامه «فبينا هو في ذلك إذ مرّ به ابن أم مكتوم الأعمى فكلم رسول الله (ص) وجعل يستقرئه القرآن ، فشقّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه

(١) مارية بنت شمعون سرية الرسول صلى الله عليه وسلم وأم ولده ابراهيم ، قبطية اهداها اليه المقوقس . ينظر ترجمتها السيرة ١/١ و ١٩١ .
(٢) في ظلال القرآن ٨ ١٦٤ – ١٦٥ .
(٣) سورة عبس الآية ١ – ١١ .

انصرف عنه عابساً وتركه ، فأنزل الله تعالى فيه : (عَبَسَ وتَوَلَّى..إلى قوله في صحف مكرَّمة مرفوعة مطهَّرة» (١) .

هذا العتاب يبني منهج العلاقة بين النبي صاحب الدعوة وأصحابه والناس الآخرين ، فرسالة الإسلام للناس كافة ، بيد أن الحرص على كسب الناس ودخولهم الإسلام يجب ألاّ يكون على حساب السابقين فيه ، فما ينبغي أن نُقبل على المرء كافراً ونتصرف عنه إذا أسلم وما أرسل الله رسالته إلى طبقة من الناس دون أخرى ، وخاصة أن مادة الإسلام في أغلبها من فقراء الناس لامن مترفيهم ، بدليل قوله تعالى على لسان المشركين : «وما نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الذين هم أراذلُنا بادِيَ الرأي» (٢)وفي محاورتهم لنوح عليه السلام قالوا له : «أنُؤْمِنُ لك واتَّبَعَكَ الأرْذَلون» (٣) .

عاتب الباري سبحانه نبيّه بقوله : «عَبَسَ وتَوَلَّى..» مستعملاً ضمير الغائب لا المخاطب «وفي هذا الأسلوب إيحاء ، بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لايحب سبحانه أن يواجه به نبيّه وحبيبه . عطفاً عليه ورحمةً به ، وإكراماً له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه» (٤) ثم يهدأ العتاب بالالتفات من الحكاية عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب باستفهام فيه عتاب «وما يدريك لعلّه يزكى * أو يذكّرُ فتنفعه الذكرى» « وتعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب «وأما من أستغنى ، فأنت له تصدّى وما عليك ألا يزكّى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى ويسبي الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير النقيّ تلهياً ..وهو وصف شديد» (٥) ويعنف أسلوب العتاب ويشتد «وللمرة الوحيدة في القرآن كلّه يقال للرسول الحبيب القريب : «كلاّ» وهي كلمة

(١) السيرة ٣٦٣/١ – ٣٦٤ وينظر ، لباب النقول ٣٢٤ والكشاف ٢١٨/٤ .
(٢) سورة هود ، الآية ٢٧ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١١١ .
(٤) في ظلال القرآن ٤٥٨/٨ .
(٥) نفسه ٤٥٨/٨ – ٤٥٩ .

ردع وزجر في الخطاب ! ذلك انه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين) (١) فهذا العتاب في أصحاب رسول الله ودعوته وهو تدرج إلى العتاب الخالص الذي لم يسبق ولم يتبع بعفو بل ختم بما يفيد الردع .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يهش لابن ام مكتوم ويرعاه ويقول له كلما لقيه «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي» وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة» (٢) .

٤ — وقال جل شأنه «ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» (٣) .

نزلت هاتان الآيتان في أسارى بدر عندما استشار الرسول صلى الله عليه وسلم الناس في شأن الأسرى فقال : «إن الله قد أمكنكم منهم ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه . فقام أبو بكر فقال نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء. فعفا عنهم وقبل منهم الفداء» (٤)

عاتب الله نبيه الكريم فقرر قاعدة عامة للدعوة تمنع المسلمين من فداء الأسرى قبل ان تقوى شوكتهم وتترسخ اقدامهم في الأرض سيطرة وثباتاً وينفوا عدوهم من أرضهم ، ومن ثم يحق لهم أن يفادوا اسراهم «ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض» ثم يلتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أشار عليه بالمن والفداء وأخذ المغانم (٥) فيخاطبهم مخاطبة الحاضر يقول : «تريدون عرض الدنيا» اي التمتع بعاجلها من المغانم والفداء خلافاً لما يريده الله جل شأنه من قتلهم لإظهار الدين الذي تدرك به الآخرة «والله يريد الآخرة». ويتدرج العتاب ويعنف فيستحيل وعيداً بعذاب

(١) نفسه ٤٥٨/٨ .
(٢) السيرة ٣٤/٢ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٧ — ٦٨ .
(٤) لباب النقول ١٣٤ وينظر الكشاف ١٦٨/٢ .
(٥) السيرة ٦٧٦/١ .

عظيم ، لولا أن الله قد كتب على نفسه أن لا يؤاخذ الناس الا بعد نهي وأمر وإقامة حجّة ، ولم يك قد نهاهم (١) «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم»

ففي هذا العتاب درس للأمة كي لا تشتري دنياها بآخرتها فتخسر الأولى والثانية ، وهذا اعنف عتاب عاتب الله به رسوله الحبيب لأنه تضمن تهديداً ووعيداً بعذاب عظيم .

وبعد فقد تدرج اسلوب العتاب في القرآن الكريم من الرقة واللطف إلى العنف والشدة فجاء على الصيغ الآتية :

١ — عتاب لين رقيق يسبقه العفو : «عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

٢ — عتاب لين رقيق يتبعه العفو : «يا ايها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك .... والله غفور رحيم» .

٣ — عتاب شديد مشفوع بتنبيه رادع «كلا إنها تذكرة ..» .

٤ — عتاب شديد مشفوع بالتهديد والوعيد بعذاب عظيم ممتنع «ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» .

لقد كان العتاب كله من أجل الأمة فرداً ومجتمعاً ، فأما الأول : فدرس يمتحن المسلم بالجهاد ، فإن لبى نداءه فقد اهتدى ، وإن تخاذل فقد غوى وأما الثاني : فيرسم حرية وبر الأسرة في إطارها الحلال تلمساً لحياة ساكنة في ظلال المودة والرحمة . وأما الثالث : فلبناء منهج سليم ينظم العلاقة بين الدعاة والمدعوين في الإسلام ، وأما الرابع فلترسيخ أقدام الأمة على الأرض كلما مسها وهن او نابتها نائبة .

وقد كان العتاب الرحماني موجزاً قصيراً في لفظه عظيماً في معانيه كالنور ينبثق من نقطة فيضيء الأرض والفضاء الرحيب ، وقد حق هذا العتاب وجاز لأنه عتاب الخالق لمخلوقه وحبيبه وصفيّه ، فهل يصح عتاب الرسول من

(١) نفه ٦٧٦/١ .

البشر نثراً او شعراً ؟ هل يتقبله الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس بعد أن قبله من ربه ؟ نرجو أن نوفق في جلاء الإجابة عن ذلك فيما يأتي من النثر والشعر .

العتاب في النثر

قبل الرسول صلوات الله عليه عتاب ربه واستجاب له بأدب وقناعة وسمو عبودية للخالق وطاعة من المخلوق ، وقد عاتبه صحبه ففاوضهم ورجع إلى إرضائهم ، والإنسان يعاتب الرسول صلى الله عليه لأنه لا يرى ما يراه النبي ولا يعرف ما يعرفه ، فقد وضع الله في خلق الرسول وخلقه من فضائل النبوة والعقل والحكمة وحسن السيرة والمعاشرة ما يؤهله لحمل الرسالة وبلوغه قيادة الدعوة فقال تعالى : «وإنك لعلى خلق عظيم» (١) وقال سبحانه : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك» (٢) وفضلاً عن هذا الطبع الذي جبل عليه ، والخلق الذي فطر عليه والسيرة التي سارها في قومه فكان الصادق الأمين فيهم ، فقد بصّره الوحي بما لم يبصر ونبأه بما لم يعلم . فكان يرى عين اليقين خلافاً للإنسان العادي الذي لن يبلغ مهما بلغ عظمة شخصية الرسول بمعزل عن الوحي فكيف والوحي يكتنف رؤيتها ويكشف عنها الحجب ؟! ومن هذا التصور البشري الذي لا يدرك عظمة الرسول الإنسان ولا عظمة الرسول النبي ، كان عتاب الناس للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عتاب المؤمنين له ، وكان العتاب للدنيا بمعزل عن الاخرة وكان الرسول ينظر إلى الدنيا من خلال الاخرة ، وإلى الحاضر من خلال المستقبل الذي سيؤول اليه ، وقد لجأ قليلون إلى معاتبة الرسول صلوات الله عليه — ابتغاء دنيا يصيبونها — لحبهم اياه وحرصهم على محبته وايماناً منهم بسعة صدره وعدله وحلمه الذي وسع الأمة كلها أفراداً وجماعات قال تعالى : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه

(١) سورة القلم ، الآية ٤ .
(٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٥٩ .

ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» (١) .

كان العتاب الذي وصل الينا في النثر نزراً يسيراً فالرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يأت في حياته ما يستلزم العتاب ، وما ورد منه بشأنه من الناس كان منطوياً على قصور في نظرة اولئك الناس إلى موقف الرسول وسلوكه ، وسنعرض لهذا القليل ثم ندرس استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لعتاب الأنصار وإجابتهم معاتبة بمعاتبة حتى ندموا فتراضيا .

عاتب الأنصار الرسول بشأن غنائم يوم حنين بعد فتح مكة ، إذ «لما كان يوم حنين اقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذرايهم ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة الاف من الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما ، التفت عن يمينه فقال يا معشر الأنصار . قالوا : لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار . قالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك ، وهو على بغلة بيضاء ، فنزل ، فقال : أنا عبد الله ورسول الله ، فانهزم المشركون ، فأصاب يومئذ غنائم كثيرة فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئاً فقالت الأنصار : إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا ، فبلغه ذلك فجمعهم فقال : يا معشر الأنصار» (٢) وقالت الأنصار أيضاً وفي اليوم نفسه : «والله إن هذا لهو العجب ، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وغنائمنا ترد عليهم (٣). وقال قائلهم : «لقد لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال يارسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .
(٢) صحيح البخاري ٥/٣٢٠ وينظر الصفحات من ٣١٧ – ٣٢٠ .
(٣) صحيح البخاري ٥/١٠٨ .

في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع لي قومك ... فلما اجتمعوا له ... قال : يامعشر الأنصار...» (١) .

فعتاب الأنصار ورد في ثلاث عبارات أجملها سعد بن عبادة في النهاية أمام رسول الله . وكانت الأولى قولهم :

والله إن هذا لهو العجب ، إن سيوفنا لتقطر من دماء قريش وغنائمنا ترد عليهم» . فهم يعلنون دهشتهم وحيرتهم من فعل الرسول إذ يعطي آخر الناس إسلاماً ويحرم أول الناس إسلاماً ، ويستعمل قائلهم التقابل في تفسير العجب والدهشة بين «إن سيوفنا لتقطر من دماء قريش» و«وغنائمنا ترد عليهم» .

وكانت الثانية قولهم :

«إذا كانت شديدة فنحن ندعى ، ويعطى الغنيمة غيرنا»

أخذتهم الدهشة من حرمان الرسول إيّاهم وهو الذي اعتاد أن يكرمهم ويتساءلون عن سر هذه المفارقة بين دعوتهم عندما هرب الطلقاء وقسمة الغنائم في سواهم ومنهم الهاربون وقد عبروا عن ذلك بأسلوب الشرط وجوابه «إذا كانت شديدة فنحن ندعى» وبالتقابل الدلالي بين معنى الجملتين «إذا كانت شديدة فنحن ندعى» و (ويعطى الغنيمة غيرنا» .

وكانت الثالثة قولهم :

«لقد لقي والله رسول الله قومه» .

فقد رأوا عاتبين أن الرسول آثر قومه عليهم بالغنائم لقرابته فيهم فظنوا مساساً بعدالته — حاشاه — فعبروا عن ذلك مؤكدين باللام التي اقترنت بقد مشفوعة بالفعل الماضي متبوعة بالقسم بالله عز وجل .

ثم يحمل سعد بن معاذ عباراتهم الثلاث ويصوغها برفق وهدوء فيقول :

إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء

(١) السيرة ٢/٤٩٨ - ٤٩٩ .

الذي أصبت قسمتَ في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء» .

لقد أجمل سعد موجدتهم بسبب من ظنهم بإيثار الرسول قومه ، وإغداق العطايا في قبائل العرب دون الأنصار ، جمع سعد مقابلاتهم في الأسلوب بمقابلة واحدة بين «قسمت في قومك» و «ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء» ونلمح في قول سعد بن معاذ توكيداً على حرمان الأنصار يلوح في التركيب الاسمي للجملة المؤكدة بإنّ التي ورد خبرها جملة فعلية مسبوقة بقد التحقيقية ، كما يلوح بتكرار صيغة الفعل الماضي ، اربع مرات «صنعت ، أصبت ، قسمت ، أعطيت» . كانت عبارات العتاب الثلاث بعيدة عن مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن سعداً جمعها وقرّبها وعرضها على الرسول صراحة ومواجهة ، ليسمع الجواب ويعرف البيان ، إيماناً منه بعدالة الرسول واعتزازاً بحرية القول وحب نبيّه حباً عميقاً يخشى أن يمسّ صفوه بشائبة تكدره .

يعتب الأنصار وعيونهم تنظر إلى الدنيا ونفوسهم ترى الماضي والحاضر ويغيب عنا وعنهم المستقبل . ويقبل الحبيب اللبيب العتاب متسائلاً عن الخبر الذي بلغ مسامعه مندهشاً من تفكير الأنصار بالدنيا وهم الذين وهبوها لأخوانهم المهاجرين فقاسموهم التمرة والحصير والرغيف ، وهم الذين اشترى الله دنياهم بآخرتهم بأن لهم الجنة فيقول لهم بأسلوب العارف بداء الكلام وأدوائه ، ومصادره وموارده ، بمعان ظاهرة مكشوفة ، قريبة معروفة عند أحبائه الأنصار :

«يامعشر الأنصار : ماقالةٌ بلَغتْني عنكم ، وَجدةٌ (١) وجدتموها عليّ في أنفسكم : ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالةً (٢) فأغناكم الله ، وأعداءَ فألّفَ بين قلوبكم ! قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ (٣)

(١) الموجدة : العتاب ، ويروى جدة ، واكثر ما تكون الجدة في المال .
(٢) العالة : جمع عال ، وهو الفقير .
(٣) أمن : من المنة ، وهي النعمة .

وأفضل» (١) . إن الرسول يجيب العتاب بعتاب للذكرى ،فيذكر الأنصار بأفضل غنائمهم التي غنموها في الإسلام وهي هجرته إليهم ، فقد كانت الهجرة بفضله هداية و غنى وأخوّة لهم ، يعاتبهم باستفهام منفي للتقرير فتنفعهم الذكرى فيقولون «الله ورسوله أمنّ وأفضل» وكأنهم ندموا على مابدر منهم من عتاب بعد أن ذكّرهم الرسول صلوات الله عليه بفضله وفضل الله عليهم. وكأنه صلوات الله عليه لايريد أن يراهم حزانى كاسفين نادمين فيسألهم «ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المنّ والفضل . قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لوشئتم لقلتم ، فلصدّقتم ولصُدّقتم : أتيتنا مكذّباً فصدّقناك ومخذولاً (٢) فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك (٣)» (٤) ، لقد منّ عليهم أن هداهم الله وأغناهم وألفّ بين قلوبهم على يديه في بداية خطبته ،ثم وازن بين موقفه منهم وموقفهم منه بعد أن أقرّوا بفضل الله ورسوله ومَنّهما عليهم فذكر صلى الله عليه فضلهم على الإسلام ودعوته ونبيّه يوم صدقوه ونصروه وآووه وآسوه مستعملاً أربع جمل مزدوجة في قوله «فصدقناك ، ونصرناك، فآويناك ، فآسيناك» . وتقوم موازنته في الموقف على معان متكافئة هي الهداية والغنى والتآلف في موقفه منهم والتصديق والنصرة والإيواء ، والتأسي في موقفهم منه فكان القاضي العدل بينه وبينهم عرض رأيهم ورأيه في الدنيا بتوازن إسلامي جمع الفكرة والفن ، ثم التفت إليهم ليكشف لهم ماغاب عنهم وما تأبّى تفسيره عليهم من قسمة الغنائم بين سواهم مذكراً بأن الغنائم إنما هي دنيا ، وما حالفهم عليها وما آمن وآمنوا بالله من أجلها وما أرادوا الحاضر ولكن أرادوا الله والآخرة ، فيدخل إلى قلوبهم متسللاً بلطف مستفهماً بالهمزة بأسلوب المعاتب : «أوجدتم يامعشرَ الأنصار في أنفسكم في لعاعةٍ (٥) من الدنيا تألّفتُ بها قوماً أ

(١) السيرة ٢/٤٩٩ ..
(٢) المخذول : المتروك بلا نصير .
(٣) اسيناك : لمينا ك متى جعلناك كأحدنا .
(٤) السيرة ٢/٤٩٩ ..
(٥) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

ليسلموا ، وَوَكَلْتُكُمْ إلى إسلامكم» (١) . وبعد أن يفسّر لهم ماالتبس عليهم من تقسيمه الغنائم في سواهم من أنه أراد الآخرة ونشر الدعوة ليسلم الناس ويحسنَ إسلامهم بعد أن يتألفهم بالمال والعطاء ، يفضي الى الأنصار بشتّه العالية بهم وبصدق إسلامهم الذي وكلّهم إليه ، يعود مستفهماً مرة اخرى استفهام العاتب المدلّ المحب : «الا ترضون يامعشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟» (٢)

يوازن لهم مرة اخرى فيخبرهم انه اعطى الناس الدنيا وبشرهم بأن لهم الآخرة ممثلة برسول الله ويطمئنهم بأنه لم يؤثر قومه كما ظن الظانون منهم ، فلن يعود إلى مكة ولكنه سيعود إلى احبابه في المدينة واهله في عُرى الإسلام ويبلغ به صلى الله عليه وسلم الحماس وصدق القول والانفعال المحب المدلّ فيقسم بالذي نفس محمد بيده ، والقسم هنا اثير عزيز عميق عند الأنصار ، يجتمع فيه الإيمان والحب ، الإيمان بالله والحب العميق لنفس رسول الله «فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار» (٣) .

إنه ليؤكد نفسه انصارياً في القسم وفي السير في شعاب الانصار دون شعاب سائر الناس ، ثم يعود ويستشعر الحب العميق للانصار فيدعو لهم : «اللهـــم ارحم الانصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» (٤) . دعوة حب ورحمة من نبي الرحمة ، لهم ولأبنائهم ولأحفادهم من بعدهم بعبارات ثلاث مزدوجة ختمها جميعاً بالاسم المحبب إلى نفسه «الأنصار» لقد كرر اسمهم فناداهم : «يامعشر الأنصار» أربع مرات ، وذكرهم في خطبته فضلاً عـن هذا النداء ست مرات ، وما نبع هذا التكرار إلاّ من الحب وما زاد التكرار إلا من عمق ذلك الحب في نفس الرسول الطاهرة النقية . وكان من أثر هذه

(١) السيرة ٢/٤٩٩ .
(٢) السيرة ٢/٤٩٩ .
(٣) نفسه ٢/٤٩٩ .
(٤) نفسه ٢/٤٩٩ ..

الخطية أن : «بكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً» (١) .

لقد عاتب الأنصار رسول الله وقبل عتابهم . وعاتبهم فكان خير عاتب ومستعتب . وقد كان النثر الذي ورد فيه قول الأنصار كما أشرنا آنفاً قليلاً موجزاً وبدا عليه تخيّر الكلام وحسن صوغه تأدباً وكياسة وفطنة في الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه .

العتاب في الشعر

عاتب الشعراء الرسول — صلى الله عليه وسلم — في قصائد قليلة . وفي حالات نادرة خاصة قياساً بالكم الكبير الذي وصلنا من الشعر في حياته الكريمة ، وقد استجاب لذلك العتاب مدللاً على عظمة شخصيته التي وصفها القرآن الكريم وعرفتها الأجيال الإنسانية . وكانت تلك الحالات التي ورد فيها العتاب حالات إنسانية قد تبدو محنّة في اثناء حا ضرها وفي دائرة المعرفة التي يغيب عنها لرحي او يغيب عنها تصوّر المستقبل والحياة الآخرة . فمن هذه الحالات :

١ — عتاب قتيلة بنت النضر بن الحارث

اسر المسلمون النضر بن الحارث يوم بدرٍ فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه بقتله فقتله . (٢) وكانت ابنته قتيلة شاعرة محسنةً ، فكتبت للرسول — صلى الله عليه وسلم منصرفَهُ من بدر وذلك قبل إسلامها (٣) . وقدمت لقصيدتها برثاء ابيها (٤) :

يا راكباً إن الأثيل مظنّـــــــةٌ من صبح خامسة وانت موفّق (٥)

---

(١) نفسه ٢/٥٠٠ اخضلوا لحاهم : بلوها بالدموع .

(٢) ينظر السيرة ١/٦١٠ والأغاني ١٩/١ «اخت النضر بن الحارث» والصواب ابنته كما في الاستيعاب وابوه النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبدالدار .

(٣) ينظر ترجمتها في الاستيعاب ٤/١٩٠٤ .

(٤) السيرة ٢/٤٢ وينظر الاستيعاب من ٤/١٩٠٤ — ١٩٠٥ .

(٥) الأثيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء . مظنة : موضع ايقاع الظن .

ابلغ بها ميتاً بأن تحيّـــــــــةً ... ما إن تزال بها النجائب تخفق(١)
مني إليك وعبرةً مسفوحـــــــةً ... جادت بواكفها واخرى تخنق(٢)
هل يسمعنّي النضر إن ناديتـــهُ ... ام كيف يسمع ميّتٌ لاينطـــق

ترسل الشاعرة التحية تلو التحية إلى ابيها مع الركبان ، وتذري الدمع عبرات خانقة معلنة اسفها على موت ابيها الذي عطّل الموت حواسه ، فصم عن سماع تحيتها ، وانخرس عن الإجابة عليها ، وتسأل سؤالين حزينين برقة وإشفاق منكرة فيهما سماع الميت ونطقه ، وبعد ان توفي حاجة نفسها من العبرات ، وحق ابيها من الرثاء ، تنتقل بذكاء إلى مدح الرسول — صلى الله عليه وسلّم — لتمهّد ببيت من المديح لعتاب كريم حزين تسوّغه قرابة ابيها من رسول الله وتشير آسفة إلى تمزّق صلة الرحم القديمة — التي ابدلها الله برحم العتيدة — مستثيرة الشفقة على ابيها إذ صورته اعزل يرسف في قيده متوجهاً نحو قتله : (٣)

امحمدٌ ياخير ضنء كريمـــة ... في قومها والفحل فحلٌ معرق(٤)
ماكان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق(٥)
او كنت قابل فدية ، فلينفقنْ ... بأعز مايغلو به ماينفـــــقُ
فالنضر اقرب من اسرت قرابةً ... واحقهم إن كان عتقٌ يعتـــق
ظلّت سيوف بني ابيه تنوشـــهُ ... لله ارحامٌ هناك تشقق (٦)
صبراً يقاد إلى المنيّة متعبـــــاً ... رسف المقيّد وهو عانٍ موثق (٧)

(١) الانجاب : الإبل العتاق . تخفق : تسرع .
(٢) الواكف : السائل .
(٣) السيرة ٢/٤٢ وينظر الأغاني ١٩/١ .
(٤) الضنء : الأصل والولد . المعرق : الكريم .
(٥) المحنق : الشديد الغيظ .
(٦) تنوشه : تتناوله . تشقق : تقطع
(٧) الرسف : المشي الثقيل ، كمشي المقيد ونحوه . العاني : الأسير . وقد وردت هذه الأبيات باختلاف في ترتيبها وبعض الفاظها في الأغاني ١٩/١ .

وبعد هذا التصوير والوصف يهتز الرسول صلوات الله عليه هزة كريم فيعلن «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه» (١) . ومن كرم هذا العتاب ورقته قال القدماء في هذه القصيدة وصاحبتها «إن شعرها أكرم شعر موتورة واعفه وأكفه واحلمه (٢). غير ان هناك من صعد هذه الحالة الإنسانية التي تؤكد حب الابنة لأبيها وحزنها واسفها على فراقه إن حالة من الصراع القبلي تنطلق من هاجس الحرص على القبيلة «وهاجس القبيلة وروابطها لم يكن يطغو من خلال الصراع (بين المسلمين والمشركين) وإنما كان يخالط حتى حالات من العتاب ولقتيلة بنت الحارث في رثاء ابيها وقد قتل في اسره مايلمح إلى ذلك» (٣) والحق ان الشاعرة اشارت إن تشتق الأرحام وإلى القرابة بين ابيها والرسول — صلى الله عليه وسلم — لتسوغ عتابها .

لقد جاء اسلوب قتيلة حزيناً مفعماً بالأسى ، منطلقاً من إيمانها بقدرة الرسول الكريم على العفو والمن ووصل الرحم ، وتمنت في نفسها لو قبل الرسول من ابيها الفداء كما قبله من اسارى بدر ، ولكنها امنيات مشركة تنطلق من حالة إنسانية تفيض بحب الأب المشفوع بالحزن والأسى واللوعة إنطلاقاً من نظرة غاب عنها الإسلام والوحي والايمان . وكانت الاستجابة الكريمة الممتنعة «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه» تجاوباً مع العاطفة الإنسانية ، وتخفيفاً او غسلاً للضغينة من قلب الشاعرة ؛ ويأتي هذا العتاب متسقاً مع لون العتاب الأول في القرآن الكريم ؛ إذ سبق العفو العتاب في القرآن ، وقدمت الشاعرة للعتاب ببيت من المديح للرسول — صلوات الله عليه — .

٢ — عتاب العباس بن مرداس السُّلَمي

اعطى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يوم حُنَيْن المؤلفة قلوبهم ، وكانوا اشرافاً من اشراف الناس ، يتألفهم قومهم..واعطى عيينة بن حصن

(١) السيرة ٢/٤٣ وينظر الاستيعاب ٤/١٩٠٥ .
(٢) الأغاني ١٩/١ وعيون الانباء في طبقات الأطباء ١٧٠ .
(٣) الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية ، احسان سركيس ٩٠ .

الفزاري مائة بعير ، واعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير... واعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها (١) ، فعاتب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم – بقوله (٢) :

وكانت نهابـاً تلافَيتُهـا ... بكرّي على المهر في الأجرُع (٣)
وإيقاظي القوم ان يرقـدوا ... إذا هَجَعَ الناسُ لم اهجـع
فأصبح نهبي ونهب العُبَيْـد ... بين عُيَيْنَةَ والأقرع (٤)
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَأ ... فلم أُعْطَ شيئاً ولم امنع (٥)
إلاأفائل اعطيتُهـا ... عديد قوائمها الأربـع (٦)

يوضح العباس لنا موقفه من نصيبه من الغنائم مستنداً إلى عقلية جاهليـة ترى ان يناسب نصيب المقاتل من الغنائم بلاءه في الحرب ودوره في القتال وغاب عن تصوره ماوعد الله المجاهد في الآخرة من ثواب وحسن مآب ، ذلك انه حديث عهد بالإسلام ، فهو ينظر إلى نصيبه ومكانه في الحرب من خلال نديّه : الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري وهو ينظر إلى حجم الغنائم التي ينالها من الرسول – صلوات الله عليه على انها تمثل منزلته الاجتماعية التي يتبوّؤها بين المسلمين من خلال قوله : (٧)

ومـا كان حصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مرداس في مجمـع
ومـا كنت دون امرىء منهمـا ... ومن نضع اليـوم لا يُرفـع

لقد رأى الشاعر في نصيبه الذي هو دون نصيب اقرانه وانداده مـن الفرسان غضاً من شأنه ، وتفضيلا لأقرانه عليه (٨) ، وقد نبع هذا العتاب من نفس اعرابية دخلها الإسلام ولم يتعمقها الإيمان ، «قالت الأعراب آمنّا

(١) ينظر السيرة ٢/٤٩٢ – ٤٩٣ والإصابة ٣/٦٣٣ .
(٢) ديوانه ٨٤ .
(٣) النهاب : جمع نهب وهو ما ينهب ويغنم ، الأجرع : المكان السهل .
(٤) العبيد : اسم فرس الشاعر .
(٥) ذا تدرأ : ذا دفع عن قومي .. مدافع ذو عزة ومنعة .
(٦) افائل : جمع افيل وهي صغار الإبل . قوائمها : اي قوائم فرسه .
(٧) ديوانه : ٨٤ – ٨٥ .
(٨) العباس بن مرداس السلمي الصحابي الشاعر ٤٠ .

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» (١) وقد قبل الرسول صلوات الله عليه هذا العتاب بغير ارتياح فقال : «اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه (٢) .

فقطع اللسان كناية عن الإسكات ، وهي كناية عن تجاوز عتاب الشاعر حدوده ، وتهافت موقفه (٣) ، وشتان هنا بين قبول الرسول الكريم عتاب الأنصار وقتيلة وعتاب العباس ، وقد استصغى الرسول صلوات الله عليه نفس الشاعر بزيادة نصيبه من الغنائم حتى عاد راضياً اليه ، فقال له معاتباً باستفهام خارج الى عتاب لا يخلو من تتريع : «ا تقول في الشعر » فجعل يعتذر اليه ويقول : بأبي انت وامي إني لأجد للشعر على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النمل ، فلا اجد بداً من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين» (٤) . وشتان ايضاً بين العاطفة الرقيقة الحزينة الشفافة التي صدر عنها شعر قتيلة والعاطفة الفجة التي تفوح منها رائحة الطمع بالشاة والبعير التي نبع منها شعر العباس الذي لم يتأثر بأسلوب القرآن الكريم ليناً ورقة في العتاب .

٣ – عتاب حسان بن ثابت الأنصاري :

أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم ما اعطى في قريش وقبائل العرب ، ولم يعط الأنصار شيئاً (٥) ، وقدم خالد بن الوليد في غزوة الفتح في سليم وغيرها ، وسار هو صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار ، فلما جعل سُليماً في المقدمة كرهت ذلك الأنصار فقال حسان (٦) :

(١) سورة الحجرات ، من الآية ١٤ .
(٢) السيرة ٤٩٣/٢ واحياء علوم الدين ١٢٧/٣ .
(٣) ينظر : الرسول والشعر من خلال السيرة د. قاصد ياسر الزيدي (مجلة) ٥٥ .
(٤) احياء علوم الدين ١٢٧/٣ .
(٥) السيرة ٤٩٧/٢ .
(٦) ديوانه : ٢٠٦ – ٢٠٧ .

زادت همومي فماءُ العين ينحدر سحاً إذا غرَّقَتْه عَبْرةٌ درر
وجداً بشعثاءَ إذْ شعثاء بهكنةٌ حوراءُ لا دنَسٌ فيها ولا خور
دع عنك شعثاء إذْ كانت مودّتها نَزراً وشرٌّ وصال الواصل النزر

يبدأ شعر حسان بعاطفة يشوبها الحزن وتغرقها الدموع الغزيرة معبراً عن وجد عميق وحب اصيل طاهر نقي من الدنس والخور ، مصوراً العلاقة النقية الصافية التي تربط الرسول — صلوات الله عليه — بالأنصار ، وينتقل إلى العتاب مبيناً سببه موضحاً دواعي حزنه :

وانت الرسول فقلْ يا خير مؤتمن للمؤمنين إذا ما عدل البشرُ
علام تُدعى سُليم وهي نازحة امام قوم هم آووا وهم نصروا

إن حساناً يخشى أن يُفسر العتاب بموجدة او فتور الحب ، ولذلك يحتاط للأمر فيعلن ان الرسول — صلوات الله عليه — «خير مؤتمن للمؤمنين» من دون سائر البشر — وإنه لكذلك — فالشاعر يبدأ العتاب بالمديح نحو مافعلت قتيلة من قبل ، ثم يسأل الرسول عن سر تقديم سُليم على الانصار مع انهـــا بدوية «نازحة» لم تُسْلم معه في المدينة وهي حديثة عهد بالاسلام. والانصار أول الناس إسلاماً بعد المهاجرين ، ويذكّر حسان الرسول (ص) بالآيات الكريمة التي نزلت بحق قومه الذين آووا ونصروا « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم» (١) ، ثمّ يذكره بمواقفهم ومشاهدهم في الله ورسوله الموقف تلو الموقف :

سمّاهُمُ اللهُ انصاراً لنصرهم دين الهُدى وعوان الحرب تستعرُ (٢)
وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا للنائبات فما خامُوا وما ضجروا (٣)
والناسُ ألبٌ علينا فيك ليس لنا إلاّ السيوفَ واطرافَ القنا وَزَر (٤)

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٤ .
(٢) العوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة .
(٣) خامُوا : جبنوا .
(٤) البيت في رواية السيرة ٤٩٨/٢ . الوزر : الملجأ .

لقد كذّب الناس رسول الله(ص)اول الأمر ، ومن هؤلاء الناس سُلَيم ، ووقف الأنصار بجانبه مصدقين مدافعين منافحين ، فعاداهم الناس لنصرهم رسول الله ودينه . وينتقل حسان ليتحدث عن تجربة الانصار في الحرب والجهاد بقيادة المصطفى — صلوات الله عليه — جهاداً يتلازم مع الإيمان بكل آية ينزل بها الوحي من الله :

نجالد الناس لانبقي على احد ... ولّى ونَتْبع ماتوحي به السُّوَرُ
ولا يهزُّ جنابَ الحرب مجلسُنا ... ونحن حين تلظّى نارها سَعَرُ
وكم رددنا بدر دون ماطلبوا ... اهلَ النفاق وفينا أُنزل الظفَرُ
ونحن جندك يوم النعف من احد ... إذا احزَبَتْ بطراً اشياعها مضرُ
فما ونينا وما خمنا وما خبروا ... منّا عتاراً وجلُّ القوم قد عثروا

لقد استثمر حسان تجربة الحب والحرب والولاء للإسلام في عتاب النبيّ القائد — صلى الله عليه وسلم — فاستثمر عاطفة الحب والحزن والحماس للعتاب أيضاً، كل ذلك ليبين موقفه الإسلامي الإيماني من خلال نظرة إنسانية محجوبة عن النبوّة (١) . ولربما شجع حسان على العتاب ماحصل بُعَيد فتح مكة من رَهَق في سيوف سليم وخالد بن الوليد ، فقد «بعث الرسول — صلى الله عليه وسلم — فيما حول مكة السرايا تدعو الى الله — عز وجل — ولم يأمرهم بقتال . وكان ممن بعث خالد بن الوليد وامره ان يسير بأسفل تهامة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، فوطىء بني جذيمة ، فأصاب منهم وكان بأمرة خالد قبيلة سليم ... فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ، ثم قال : «اللهم إني ابرا إليك مما صنع خالد بن الوليد ثم ارسل عليَّ بن ابي طالب بأموال إلى القوم فوداهم وارضاهم ، وعاد الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبره بما صنع فقال : اصبت واحسنت ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه ، حتى ليرى مما تحت منكبيه ، يقول : اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرّات» (٢) .

(١) ينظر هامش ٢٩٨ الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ، دراسة نكرية فنية
(٢) ينظر تفصيل الخبر في السيرة ٢/٤٢٨ — ٤٣٠ .

لم يكن هدف الرسول – صلى الله عليه وسلم – تفضيل سُلَيم على الأنصار ولكنه كما ارى حاول ان يخفف العداء بين قريش والأنصار حتى لايستمر تتابع الوقائع بين الطرفين ، فيكون مدعاة في المستقبل بعد إسلام قريش لإثارة الفتن والضغائن والأحقاد . وليأمن كبح جماح الثارات التي يخشى ان ينساق لها الأنصار فيفتكوا بقريش في الوقت الذي يهدف فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى إسلام مكة لا إلى إذلالها .

تأثر اسلوب حسان بالأسلوب القرآني الذي تأدب به فنحا نحوه في لطف العتاب ورقته ، ولا نعرف جواب الرسول الكريم على عتاب حسّان ، ولكننا نظن ظناً غالباً باليقين بأن استجابته لعتابه لن تختلف كثيراً عن استجابته لعتاب الأنصار يوم حُنَيْن ، لقد كان عتاب حسان نظرةً آنيّة في الدنيا ، وكان موقف الرسول – صلوات الله عليه نظرة مستقبلية من اجل الدنيا والآخرة معاً .

يستفهم حسان بإنكار ريادة سُلَيم لجيش المسلمين في دخول مكة ، ثم يعلل سبب إنكاره بما للأنصار من دور في حياة الدعوة والمسلمين ببقية الأبيات «علامَ تُدعى سليم...» .

لقد اثارت قصيدة حسان حفيظة العباس بن مرداس فناقضها مناقضة خفية في قصيدته التي مطلعها : (١)

مابال عينيك فيها عائر سَهِـــــــــرُ مثل الحماطة اغضى فوقها الشُفُر (٢)

والتي يعرّض فيها تعريضاً مقيتاً بالأنصار بقوله :

لا يغرسون فسيل النخـل وسطهـــم و لاتخاور في مشتاهم البقـــر

وقد سبق لنا ان وقفنا موقفاً متأنياً عند هاتين النقيضتين دراسةً وتحليلاً (٣)

لقد اثار عتاب حسان هذا مؤاخذة عدد من الدارسين ، فرأى الدكتور

---

(١) ديوانه ٥٣ .

(٢) العائر : كل ما دخل العين . الحماطة : شجر خشن الملمس وصله تبين الذرة تقع في العين تتقذى به . اغضى : انمض جفنه عليها . الشفر : اصل منبت الشعر في العين .

(٣) الشعر الإسلامي ٢٩٧ – ٣٠٠ .

سامي مكي العاني انّه بقايا من جاهلية حسان القديمة التي بالغ فيها حتى انقلب فخره إلى عتاب لرسول الله (١) ورأى آخر ان هذه القصيدة نزوع إلى القبلية وحنين إليها ، ورفض لظاهرة الدولة بمفهومها الجديد (٢) . وليس في الأمر شيء من الجاهلية او رفض للدولة الجديدة ، بل الأمر كله ان حساناً رأى ان يكون الأنصار اول داخل إلى مكة لسابقتهم في الإسلام وحسن بلائهم في الله لا ادنى من ذلك ولا اكثر .

وقد رأى الدكتور عبدالله الحامد في هذه القصيدة كلفاً جاهلياً عكّر صفو الشعر الإسلامي ، لكنه اشاد بالصراحة بين الحاكم والمحكوم فقد كان الفرد «حراً يقول مايريد في حدود الإطار الإسلامي ، كما كان الحاكم غير مستبد في رأيه ، يشرح كل موقف غامض ، ويأخذ بكل نقد حق» (٣) .

لقد استغرق العتاب في الشعر مقطوعة وقصيدتين قصيرتين ، وقد كان قصر هذه القصائد دليلاً على حجم التجربة الشعورية للشعراء العاتبين الذين أفرغوها في هذا الشكل الموجز تأدباً بين يدي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكراهة للإطالة ، إذ أن من الحكمة ألا يطول العتاب ويكثر فإن كثرته مدرجة للقطيعة — على رأي الحكماء(٤) وما كان الشعراء ليطيلو في هذا المقام الكريم والشعراء أذكياء في إيجازهم الذي رأى الجاحظ فيما ينطوي عليه من الفنون ملازماً لذكاء العرب وفطنتهم ودقة ملاحظتهم فقال : «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب . أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذق وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام» (٥).

افتتح الشعراء قصائدهم بما ينبيء عن تجاربهم في هاتيك القصائد فمطلع القصيدة وسيلة التعارف الأولى بين الشاعر والمتلقي . فمن خلاله يُستَشَفُ

(١) دراسات في الأدب الإسلامي ٢٨٢ .
(٢) الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية ٩٨ .
(٣) الشعر الإسلامي . الحامد ١٩٨ ونحن نتحرز من استعمال كلمة (الحاكم) إزاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
(٤) العقد الفريد ٣٠٩/٢ .
(٥) الحيوان ٩٤/١ .

موضوع القصيدة وعاطفتها ، ويعرف بحرها وقافيتها ، وقد عدّه ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) مفتاح القصيدة ينبغي للشاعر أن يُجوّد فيه : «فإنه أول مايقرع السمع ، وبه يُستدلّ على ماعنده أول وهلة (١) . واشترط حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) في المطلع أن يكون «مناسباً لمقصد المتكلّم من كل جهاته»(٢).

فقد افتتحت قُتيلة بنت النضر قصيدتها برثاء أبيها مشيرة إلى مكان قتله في «الأثيل» الذي ماكانت تتوقع أن يقتل أبوها فيه لقرابته من الرسول (ص) منطلقة من مفهوم قبليّ لذا أسمت المكان «مظنّة»

ياراكباً إنّ الأثيلَ مظنّـــــــــةٌ من صبح خامسةٍ وأنت موفـــق

واستمرت ترثي أباها رثاء « شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيراً للتباريح بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ» (٣) ثم اختتمت قصيدتها بعاطفة حزينة تثير الشفقة على أبيها الأسير الذي يرسف في قيوده .

صبراً يقاد إلى المنيّـــة متعـــــــــباً رسف المقيّد وهو عانٍ موثـــق

لتثير شفقة الرسول الكريم على أبيها — وقد تحقق لها ذلك — فكانت بارعة في ختام قصيدتها كما كانت بارعة في إفتتاحها «وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس ، لتربّ العهد بها ، فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح»(٤)

وافتتح العباس بن مرداس قصيدته بذكر الغنائم والنهاب واختتمها في البيت السابع بحرصه على المنزلة الاجتماعية التي ابتغاها من حصوله على تلك الغنائم .

وبدأ حسان بن ثابت قصيدته بالهموم والأحزان والدموع واختتمها في البيت الثالث عشر بتعزيز موقف الأنصار الذين ثبتوا مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — على الإسلام في حين تذبذب موقف آخرين منه .

لقد كانت مقاطع (خواتيم) القصائد مناسبة لمطالعها منسجمة مع موضوعاتها

---

(١) العمدة ١/٢١٨ .
(٢) منهاج البلغاء ، وسراج الأدبا ٣١٠ .
(٣) منهاج البلغاء ٢٢٥ — ٢٦ .
(٤) العمدة ١/١٧ .

وخاصة مقطعيْ قصيدتي قتيلة وحسان ، فقد كانا أحسن ماانتدرج في حشو القصيدتين فقد تحرّزا من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدنا إمالتها إليه (١) .

بدت الوحدة العضوية جليّةً في قصيدة قُتيلة من خلال العاطفة الحزينة التي سادتها من مطلعها إلى خاتمتها ومن خلال وحدتها الموضوعية التي اتحد فيها العتاب والرثاء اتحاداً لاتنفصل عراه فهي من جيّد الشعر الذي رأى فيه الجاحظ ماعبر عنه بقوله : وأجود الشعر مارأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان (٢) .

وبدت الوحدة العضوية أيضاً في قصيدة حسان بن ثابت على الرغم من تعدد التجارب في ظل العاطفة الحزينة التي سادت تجربته العاطفية مع «شعثاء في البيت الأول وحتى الثالث» والعتاب في البيتين الرابع والخامس» ، الذي يوظف له حسان تجربة قومه في نصرة الله ورسوله (في البيت السادس وإلى الثامن) وتجربتهم في الحرب والجهاد المتلازم مع جهاد النفس في تنفيذ مانزل من القرآن آية فآية بقيادة الرسول — صلى الله عليه وسلم — . ويوثق حسان صدق هذه التجربة بغزوتي بدر وأحد(في البيت التاسع وإلى الثالث عشر الأخير) فهذه التجارب جميعاً تجلو لنا موقف حسان من الدعوة وصاحبها ولا يتعارض تعدد التجارب مع الوحدة العضوية ، مادامت تمثل جميعاً موقف نفس حسان من الدعوة وصاحبها : «إن الكثيرين لايفهمون المقصود بهذه الوحدة(العضوية) فيظنون أن مدلولها هو اقتصار القصيدة على تجربة واحدة أو عاطفة واحدة ، ولكن الوحدة المطلوبة لاتحجز الشاعر عن تعدد التجارب والعواطف في قصيدته ، إنما يشترط أن تكون جميعاً متجانسة المغزى ، هادفة بتعددها إلى استجلاء وحدة في الوجود أو في موقف النفس البشرية منه. (٣)

(١) ينظر منهاج البلغاء٢٨٥ .
(٢) البيا والتبيين ٦٧/١ .
(٣) قضية الشعر الجديد ١٠٨ - ١٠٩ .

تفاوتت لغة القصائد الثلاث قوة ورقة فكانت قصيدة قتيلة رقيقة الألفاظ يشوبها الحزن والأسى ولهذا الحزن دوره في تشكيل لغة القصيدة «فليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك . ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها» (١) .

واجتازت قصيدة حسان مافي لغة قتيلة من رقة إلى شيء من قوة الألفاظ التي تناسب الفخر الذي أشاعه حسان في جوانب قصيدته وكانت لغة القصيدتين حضرية جانبت البداوة وابتعدت عن الغريب ذلك أن حسان وقتيلة حضريان هو من المدينة وهي من مكة وأهل القرى الطف نظراً من أهل البدو»(٢) . فلغتهما ألطف من لغة العباس بن مرداس البدوي الذي لم تصقل لغته وأساليبه الحضارة ولم يتعشق نفسه الإيمان وقد شغل بنصيبه من الغنائم عن فنه الشعري فوقف يعقد منافرة بينه وبين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن (في البيت الثالث) ومنافرة أخرى بين أبيه العباس وأبوي قرنَيْه . حابس وحصن(في البيت السادس) .

لقد اختلفت لغة القصائد الثلاث باختلاف عواطفها السائدة ، واختلاف بيئات شعرائها . واختلاف شخصياتهم وذلك أمر طبيعي فقد كان القدماء يختلفون في إتقان الشعر «وتتباين فيه أحوالهم . فيرق شعر أحدهم . ويصلب شعر الآخر . ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره . وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق . فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع . ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ . معقد الكلام . وعر الخطاب . حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته . وفي جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك» (٣) .

(١) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ٨٩ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ١/١٤٠ .
(٣) المرجع ١٧ — ١٨ .

استعان الشعراء للإتيان بالتكرار لتحقيق انسجام إيقاعي في شعرهم فضلا عن التأكيد والإفهام والإقناع ويعد الدكتور سامي العاني التكرار من السمات البارزة في شعر صدر الإسلام (١) .

فقد كررت قتيلة في قصيدتها ألفاظاً جانست بينها (في البيت الرابع) «هل يسمعني ، كيف يسمع» وفي «البيت الخامس» بين «والفحلُ . فحل» واستعمل العباس التكرار أيضاً في «البيت الثالث» فجانس بين «نهبي ونهبُ» وكرّر حسان الفاظاً في شعره نحو تكراره لاسم حبيبته «شعثاء» في «البيت الثاني» وجانس في «البيت الرابع» بين لفظتي «مؤتمنٍ وللمؤمنين» وكرر الضمير هم في «البيت الخامس» هم وهم» وجانس في (البيت السادس) بين لفظتي «أنصاراً ولنصرهم» . وثمّة تكرار آخر غير الجناس يمهّد لتوقع القافية أشار اليه ابن المقفع إشارة غير مباشرة من خلال حديثه عن القافية فقال: «كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته (٢) وسمي هذا اللون من التكرار التوشيح وهو «أن يكون معنى أول الكلام يدل على لفظ آخره فينزل المعنى منزلة الوشاح . وينزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح (٣) واشترط قدامة بن جعفر «أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته . ومعناه متعلقاً به حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة — التي البيت منها — إذا سمع اول البيت عرف آخره وبانت قافيته(٤) وهذا التكرار يقيمه الشاعر بذكر لفظ في البيت ثم يعيد ذكره أو ذكر أحد مشتقاته في القافية فيكون الأول ممهداً للثاني وقد يكون بين اللفظين جناس أو طباق ، ويحقق هذا التكرار «التوشيح» توكيداً للمعنى أو استمتاعاً وتلذذاً بترديد أسماء الأفراد أو الأماكن ويحقق للمتلقي متعة المشاركة بتوقع القافية التي يوحي بها اللفظ الأول ومن هذا اللون قول قُتَيْلة :

(١) الإسلام والشعر ٢٢٠ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٣) حسن التوسل الى صناعة الترسل ٢٥٩ .
(٤) نقد الشعر /١٩.

أو كنتَ قابل فديةٍ فلينفقنْ بأعزّ مايغلو به مايُنفَـــق
فالنضر أقربُ من أسرتَ قرابةً وأحقهم إن كان عتقٌ يعتـــق

وقول العباس بن مرداس :

وإيقاظيَ القومُ أن يرقـــدوا إذا هجع الناس لم أهْجَـــعِ

وقول حسان بن ثابت :

دعْ عنك شعثاءَ إذ كانت مودّتها نزراً وشرّ وصال الواصل النزرُ
فما ونينا وماخمنا وما خبروا منّا عثاراً وجلّ القوم قد عثروا

واعتمد الشعراء الأضداد في شعرهم فطابقوا بين الألفاظ نحو مافعـــل العباس في «البيت الأول» إذ طابق بين «إيقاظ ويرقدوا» وبين «هجع ولـــم أهجع» وفي «البيت الرابع» بين «لم أعطَ . ولم أمْنَع» وفي «البيت السابع» بين «تَضَع ولا يرفَع» ونحو مافعله حسان بن ثابت إذ طابق في «البيت السابع» بين «جاهدوا وخاموا» . ومن اعتمادهم الأضداد أيضاً استعمالهم التقابل الدلالي بين المعاني نحو قول قتيلة تقابل بين الحي في الشطر الأول وضده في الشطر الثاني :

هل يسمعنّي النضر إنْ ناديتُـــهُ أم كيف يسمعُ ميتٌ لايَنطـــقُ

ونحو مافعل حسان بن ثابت إذ قابل بين تحالف الأنصار مع الرسول (ص) وتحالف قبائل مضر ضده .

ونحن جندك يوم التعف من أحـــد إذا احزبت طراً أشياعها مضر

وأقام تقابلاً آخر بين شجاعة قومه وجرأتهم وتعثر الآخرين في مسيرة الإسلام .

فما ونَيْنا وما خمْنا وما خبَـــروا منا عثاراً وجلّ القوم قد عثروا

لقد أدت هذه الطباقات والمقابلات حقيقة عززت موقف الشعراء في العتاب الذي أدوه بين يدي الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

ثبت بالمصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ — احياء علوم الدين . ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار للعلامة زين الدين ابي الفضل عبدالرحيم بن الحسين العراقي (ت ٨٠٦هـ) دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت — لبنان . (د.ت) .

٢ — الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ابو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر . (ت ٤٦٣هـ) . تحقيق : علي محمد البجاوي . مطبعة نهضة مصر . الفجالة . القاهرة . (د.ت) .

٣ — الإسلام والشعر . الدكتور سامي مكي العاني . سلسلة عالم المعرفة العدد ٦٦ . الكويت . ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م .

٤ — الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلاني احمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي . دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م .

٥ — الأغاني . ابو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦) إشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري . طبعة خاصة تصدرها دار الشعب ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

٦ — الألفاظ الكتابية . عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني (ت ٣٢٠هـ) . الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٠م (د.م) و (د.ت) .

٧ — البيان والتبيين . ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، مؤسسة الخانجي . ط ٣ . القاهرة (د.ت) .

٨ — التفسير الكبير . الإمام الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية . طهران . (د.ت) .

٩ — الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٦٦م .
١٠ — الحيوان ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م .
١١ — دراسات في الأدب الإسلامي ، الدكتور سامي مكي العاني ، توزيع المكتب الإسلامي (د.م) ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .
١٢ — ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق : الدكتور سيّد حنفي حسنين ، مراجعة : حسن كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .
١٣ — ديوان العباس بن مرداس السلمي ، (ت نحو ١٨هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، دار الجمهورية ، وزارة الثقافة والإعلام ، (د.م) ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م .
١٤ — ديوان النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية ، (ت ٦٠٤م) ، تحقيق : محمد أبي الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة (د.ت) .
١٤آ — الرسول والشعر من خلال السيرة ، د. كاصد ياسر الزيدي ، مجلة الجامعة ، العدد الخامس ، السنة : الحادية عشر ، ١٩٨١ الموصل .
١٥ — السيرة النبوية ، عبدالملك بن هشام ، (ت٢١٨هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وابراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٥هـ — ١٩٥٥م .
١٦ — الشعر الإسلامي في صدر الإسلام ، الدكتور عبدالله الحامد ، مطابع الإشعاع التجارية ، ط ١ ، الرياض ، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .
١٧ — الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ، دراسة فكرية فنية ، رسالة دكتوراه مكتوبة على الآلة الكاتبة تقدم بها علي كمال الدين الفهادي إلى كلية الآداب في جامعة الموصل صفر ١٤١١هـ — أيلول ١٩٩٠م .

١٨ — الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث درو ، ترجمة : الدكتور محمد ابراهيم الشوش ، متيمنة ، بيروت ، ١٩٦١م .
١٩ — الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، اسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٣هـ) تحقيق : احمد عبدالغفور عطّار (د.م) و (د.ت).
٢٠ — صحيح البخاري ، الإمام الحافظ ابو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن يردزبة البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ) ، عالم الكتب ، المطبعة المنيرية ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م .
٢١ — الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية ، إحسان سركيس دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨١م .
٢٢ — طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ)تحقيق وشرح : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .
٢٣ — العباس بن مرداس السلمي الصحابي الشاعر ، الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان ، ط١ ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، السعودية ، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
٢٤ — العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ابو عمرو احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٧هـ) ، تحقيق : احمد امين واخرين ، ط٣ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ — ١٩٦٥م
٢٥ — العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، ط٤ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٢م .
٢٦ — عيون الانباء في طبقات الأطباء ، ابن ابي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ، تحقيق : الدكتور نزار رضا ، دارمكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٢٧ – في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة الخامسة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م .
٢٨ – القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ) ، دار العلم للجميع ، بيروت ، لبنان ، (د.ت)
٢٩ – قضية الشعر الجديد ، الدكتور محمد النويهي ، دار الفكر ، مكتبة الخانجي ، ط٢ ، (ب.م) ، ١٩٨١م .
٣٠ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧– ٥٣٨) طهران ، (د.ت) .
٣١ – لباب النقول في أسباب النزول جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، ط٢ ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .
٣٢ – لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري ، ابن منظور (ت ٧١١هـ) دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ – ١٩٥٦م .
٣٣ – معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، (د.م) و (د.ت) .
٣٤ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) تقديم وتحقيق : محمد الحبيب أبي الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٦٦م .
٣٤أ – نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٣م
٣٥ – الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق وشرح : محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط٤ (د.م) ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م .

الرمز في الموروث
البلاغي والنقدي العربي

الدكتور
مؤيد محمد صالح اليوزبكي
مدرس في قسم اللغة العربية
كلية الآداب / جامعة الموصل

توطئة

يتوخى هذا البحث استقصاء آراء البلاغيين والنقاد العرب القدامى عن مفهوم الرمز بغية استنباط الخطوط الفكرية العامة التي تنطوي عليها تلك الآراء . والتمامس قاسم مشترك بينها يعين على تحديد معالم مفهوم الرمز في التراث البلاغي والنقدي العربي . إنه سعي لتأصيل المفهوم على نحو مقيد بالضرورة بدلالة لفظ الرمز وحدودها لدى البلاغيين والنقاد العرب القدامى لتحديد مدى صلتها بدلالة مفهوم الرمز الأدبي الحديث من خلال تبيان طبيعته واستخلاص مستوياته .

للرمز في مظان التراث البلاغي والنقدي العربي حدود متباينة من التعريف والتفسير . فهذا (ابن وهب الكاتب) يرى أن المتكلم يلجأ إلى استعمال «الرمز في كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والافضاء به إلى بعضهم فيجعل للكلمة أو للحرف اسماً من اسماء الطيور والوحش . أو سائر الاجناس ، أو حرفاً من حروف المعجم . ويطلع على ذلك الموضع من يريد أفهامه رمزه . فيكون ذلك قولاً مفهوماً بينهما ، مرموزاً عن غيرهما . وقد أتى في كتب المتقدمين والحكماء والمتفلسفين من الرموز شيء كثير وكان أشدهم استعمالاً للرمز افلاطون . وفي القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر ، جليلة الخطر ، قد تضمنت علم مايكون في هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات